

كلمة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

١. العقل أكبر آية من آيات الله تعالى و اعظم حجة من حجج الله سبحانه، أقامه على كل البشر و بنى عليه بنيان كلّ فريضة. و أسّس كلّ شريعة على معرفة الله، الذي بعبادته يتقرّب الإنسان إليه سبحانه و يرتقى الى أرقى مدارج الإنسانية و أسمى معالم البشرية، كما أشار سيّد الساجدين، الإمام عليّ بن الحسين صلوات الله عليه في دعائه في التحميد لله تعالى:

«الحمد لله الذى لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة و أسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة، لتصرّفوا فى مننه فلم يحمده، و توسّعوا فى رزقه فلم يشكروه، و لو كانوا ذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حدّ البهيمة، فكانوا كما وصف فى محكم كتابه: إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً» (الصحيفة السجادية، دعاء ١)

٢. فيبدو ببداية العقل أنّ العبادة تصحّ حين ما صحّت المعرفة. و فى غياب المعرفة يعمل الإنسان كما قال تعالى: «ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا و هم يحسبون أنّهم يُحسنون صنعا» (الكهف (١٨)/ ١٠٣ و ١٠٤). ثم نرى أنّ السّمع يؤيّد العقل فى العقائد الحقّة، سيّما فى توحيد الله سبحانه و معرفته عزّوجلّ بالجلال و الجمال و القدرة و الكمال.

من هذا المنطلق نرى أنّ من المحكمات عند العقل أنّ الله تعالى بائن من خلقه و خلقه بائن منه. و أيضاً من محكمات كتاب الله العزيز قوله عزّوجلّ: «ليس كمثله شىء» (شورى (٤٢)/ ١١). هذه الآية القصيرة المهمّة تنفى أيّ تشبيه بالخالق من أيّ مخلوق بأية صورة يتصوّرها الإنسان و بأية دقّة يدقّ فيها و يجول فيه الفكر و الذهن.

٣. نرى هذا الكلام بتعبير آخر فى قوله عزّ و جلّ فى سورة التوحيد؛ التى سمّاها الامام باقرالعلوم^٧ ثلث القرآن (تفسير الصافي ج ٥ ص ٣٦٤). قال سبحانه: «قل هو الله أحد». و يعنى بذلك المتفرد

الذي لا مثل له و لا ندّ و لا شبهه له و لا نظير، «الذي لا يُحسّ و لا يُجسّ و لا يُدرك بالحواسّ الخمس» (الإحتجاج، ج ٢ ص ٣٢٢) و الذي ندعوه بهذه الكلمات المباركات: «قصرت الأوهام عن ذاتيّتك، و عجزت الأفهام عن كفيّتك، و لم تدرك الأبصار موضع اينيتك» (الصحيفة السجادية، دعاء ٤٧).

ثم نجد في الخطب التوحيدية الصادرة عن رسول الله و أهل بيته الأطهار: مؤيّدات و شواهد على هذه الحقيقة الفطرية المضيفة؛ منها كلام الإمام أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا صلوات الله عليه: «كنهه تفريق بينه و بين خلقه، و غيوره تحديد لما سواه» (التوحيد للصدوق، ص ٣٦)؛ يعني أنّ الله سبحانه متفرّد عن الخلق و خلّو منهم حتّى في غيبيّته؛ فغيبيّته مع الخلق تتفاوت غيبيّة الخلق بعضهم بعضاً. من هذه الإشارة المجملّة تنطلق حقائق هامّة حول التوحيد، الذي هو أسّ أساس الدّين الحنيف و أبهى معالم الشريعة الإلهية، لسنا في مقام بيانها في هذا المجال.

٤. ثم نرى ببديهة العقل ضرورة شكر المنعم إلينا أيّاً من كان، خصوصاً إن كان المنعم هو المنعم الوحيد للكلّ، و يجد العقل حقيقة كلامه تعالى شأنه: «و ما بكم من نعمة فمن الله» (النحل ٥٣/١٦)؛ و يجد العقل أيضاً كثرة نعمه على الخلق، و صدق قوله سبحانه: «و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها» (إبراهيم ١٤/٣٧).

٥. فالإنسان يرى نفسه بين نقطتين مهمتين:

الأولى: ضرورة شكر خالقه بشكل يحبّه الخالق و يرضاه، لا بما يحبّ العبد و يرضاه، كما يحكم العقل السليم عليه.

الثانية: عقيدتنا في خالقنا أنّه «لا يعلم ما هو و لا أين هو و لا حيث هو و لا كيف هو إلّا هو» (مهج الدعوات، ص ١٥٣).

فما هي الوظيفة؟ و كيف نوّدي شكر النعم التي لا تُحصى حتّى يرضى المنعم عن عملنا في مقام شكر النعم؟

من هذه النقطة الهامة تبدأ ضرورة وجود حجج الله و سفرائه على الخلق، الذين يعيشون في الناس و معهم، لكن في المستوى الأعلى من التقرب إلى الله و عبوديته و أداء ما يجب لهم من الطاعة و الإخلاص و الجهاد في سبيله.

٦. و هنا تظهر مشكلة أخرى:

نحن نرى أناساً يدّعون السفارة عن الله تعالى، هذا من ناحية. و الإنسان يحتاج إلى تقويم هذه الإدّعاءات و معرفة الصادق من الكاذب، من ناحية أخرى. فكيف الطريق إلى الحل؟

يطول الكلام في هذا المقام، و لكن لا مناص من كلمة واحدة نكتفي بها كقطرة من البحر. من حيث أنّ التقويم الالهي بإعطاء موهبة العصمة للأنبياء، بوصفهم سفراء من ربّ سبّوح قدّوس لا يظلم العباد و لا يرضى بظلم بعضهم على بعض. فرسول الله و نبيّه يجب أن يكون فيه آية من هذه القداسة و الزّاهة و الكمال، لكي يرشد العباد إلى طريق العبوديّة و يدهّم على شوارع السماء، علماً بأنّه لا يوجد سبيل للبشر - بلا تعلّم من الأنبياء- إلى سلوك هذه الطرق و الشّوارع، و أنّ العباد يحتاجون نهاية الاحتياج إلى هذا السلوك.

٧. فإذاً نقول: إنّ نبيّ الله - الممثل لربّ سبّوح قدّوس - هو عبد مقربّ، معصوم من الخطأ و العصيان و الفجور و الخمر، بل هو معصوم من الإفراط في الحبّ و البغض الذي يُعتاد في البشر، و الذي ينشأ من إطفاء نور العقل الموهوب في ضميره.

فالنبيّ هو حجّة الله الظاهرة على الخلق؛ و يؤيد الحجّة الباطنة - يعنى العقل - و يساعده في كلّ حين و آن، كما أنّ العقل يدلّ على النبيّ المعصوم؛ لأنّ غير المعصوم لا يقدر على هداية العباد و إرشادهم في كلّ ما يحتاجون إليه.

٨. هكذا يصف الله تعالى الأنبياء و الرّسل:

«و لقد اخترناهم على علم على العالمين» (الدخان(٤٢/٣٢)

«و إنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار» (ص(٣٨/٤٧)

و يقول سبحانه في شأن النبيّ موسى:

«و اصطنعتك لنفسى» (طه(٢٠/٤١)

و نرى أعلى درجات هذا القرب في علوّ درجة النبيّ الخاتم أنّ الله تعالى أقسم به مخاطباً له:

«لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون» (الحجر(١٤/٧٢)

و يريد الله رضا هذا العبد المقربّ، فيقول: «و لسوف يعطيك ربّك فترضى» (الضحى(٩٣/٥).

٩. فرسول الله عبد لله تعالى، لكن أيّ عبد! حتّى أنّ الله تعالى في علوّ قدره و سموّ مكانه يحبّ رضا هذا المخلوق الكريم.

و نحن نؤمن بكلّ الأنبياء و الرّسل: «و المؤمنون كلّ آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله»، و

يقولون: «لا نفرّق بين أحد من رسله» (البقرة ٢/٢٨٥)؛ يعني أنّهم معصومون كلّهم؛ وكلّ واحد منهم آية من آيات الله القدّوس السّبح في كماله و قداسته و نزاهته و برائته من أيّ ظلم و نقص و عيب و شين.

فإنّ جائنا نصّ موثق تلوح منه نسبة الخطأ و السهو إليهم، يجب تأويله على أساس العقل إلى محكمات العقائد، كما فعل العلامة السيد الشريف المرتضى علم الهدى (المتوفى سنة ٤٣٦) في كتابه القيم «تنزيه الانبياء».

فروح النبوة يتجلّى في قبول العصمة الإلهية للأنبياء، و نور الرسالة يظهر في براءة الرّسل من الظلم و النقصان و الخطأ.

١٠. ثمّ نفتح هنا باباً آخر و نقول:

خاتمة الرّسول الخاتم تقتضى الحفاظ على هذا الشّأن الإلهيّ و الموهبة الرّبّانية. لذلك نقيّم كلّ شخص - سيّما في القادة و الأعلام - على أساس هذا الحفاظ و الجهد في دفع ما يُريب معنوية رسول الله، بل رسل الله كلّهم من أبي البشر آدم حتى السفير الخاتم صلوات الله عليهم اجمعين. على أساس هذه الأطروحة نستطيع أن نتكلّم في الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق سلام الله عليه بأنّه وصيّ رسول الله و وارث علمه و حكمته و محيي سنّته و شريعته؛ لأنّنا نجد في حين أنّهم ينسبون أيّ نسبة شنيعة إلى رسول الله - تجلّ ساحة القلم عن ذكرها - يدافع الإمام الصادق عن جدّه الأكرم و يبيّن مكانه الأسمى للناس.

١١. فالباحث يجد في صفحات الكتب المعتمدة عشرات من الأخبار و الأحاديث و الآثار المروية عن مولانا الإمام الصادق سلام الله عليه في هذا المجال؛ نختار منها كتاباً واحداً كنموذج؛ و هو بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار؛ و نختار مجلداً واحداً من تمام هذا الكتاب العظيم الضخم - الذي يبلغ ١١٠ مجلداً - في بيان بعض الشّؤون من عظمة الرسول الأعظم ٦، و هو المجلد السابع عشر. نقصّر منه بنقل بعض الاحاديث المروية عن سيدنا الإمام الصادق ٧ في هذا المجال. و من الله التوفيق.

أ. عن فضيل بن يسار عن أبي عبدالله ٧ قال: إنّ الله عزّوجلّ أدب نبيّه فأحسن أدبه. فلمّا أكمل له الأدب، قال: «اتك لعلى خلق عظيم» (القلم ٦٨/٤).... و إنّ رسول الله كان مسدداً موقفاً مؤيداً بروح القدس، لا يزّلّ و لا يخطيء في شىء مما يسوس به الخلق... (بحار الانوار ج ١٧ ص ٤ و ٥

حديث ٣

ب. عن ابن خنيس عنه^٧ قال: ما أعطى الله نبياً شيئاً إلّا و قد أعطاه محمّداً. (نفس المصدر، ص ١١

ح ٢٠)

ج. عن ابن سنان عنه^٧ قال: لما نزلت على رسول الله^٦: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر» (الفتح ٢/٤٨) قال: يا جبرئيل! ما الذنب الماضي و ما الذنب الباقي؟ قال جبرئيل: ليس لك ذنب يغفره لك. (المصدر، ص ٩٠ ح ٢١).

قال العلامة محمد باقر المجلسي في بيان الحديث، مستفيداً من أحاديث آخر: لعلّ المعنى أنّه ليس المراد ذنبك، إذ ليس لك ذنب، بل ذنوب أمتك، أو نسبتهم اليك بالذنب، أو غير ذلك. (المصدر، ص ٩٠)

د. عن المفضّل عنه^٧: إنّ الله تبارك و تعالى جعل للنبيّ خمسة أرواح - إلى أن قال في شأن روح القدس: و روح القدس لا ينام و لا يغفل و لا يسهو، و الأربعة الأرواح تنام و تلهو و تغفل و تسهو. و روح القدس ثابت يرى به ما في شرق الارض و غربها و برّها و بحرّها. (المصدر، ص ١٠٦ ح ١٦)

١٢. و نختتم الكلام بكلمة قيّمة تكلم بها^٧ في تفسير قوله تعالى: «و قل اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله و المؤمنون» (التوبة ٩/١٠٥). عسى أن نخذر و نخاف في أعمالنا، و نستحيي من وليّنا في النعم كلّها، الخبير بأعمالنا بدقّة و ضبط، و الوالد الروحي لكلّ الأمة الذي يتعب نفسه - و لحدّ الآن - في سبيل هداية الأمة و اولاده المعصومين، سيّما الإمام المهديّ صلوات الله عليه و على آبائه الطاهرين.

«عن سماعة عنه^٧ قال: ما لكم تسوؤون رسول الله؟ فقال له رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أنّ اعمالكم تُعرض عليه؟ فإذا رأى فيها معصية سائه ذلك. فلا تسوؤوا رسول الله و سوؤوه». (المصدر، ص ١٣١ ح ٥)